# الجذور الغابية والزراعية والرعوية في الحروف العربية

الحلقة السادسة :

## أولا : حول أصول اللغة العربية وجدوى العودة إليها :

لقد اتبع العلماء الغربيون في تحرياتهم عن (أصول اللغة) نهجين اثنين متعاكسين أحدهما يهبط مما قبل التاريخ إلى علم اللغة ، والآخر يصعد من علم اللغة إلى ما قبل التاريخ ، وانتهت محاولاتهم جميعاً إلى نتائج لاأساس علمي لها . وهذا ما دعا جمعية باريز اللغوية أن تقرر في أول نظام لها عام 1866 عدم السماح بمناقشة أي بحث يتناول أصول اللغة ، ولم يرفع هذا الحرمان . يقول العلامة توفار ((يبدو لنا من الناحية اللغوية وبعد النظر في آلاف السنين التي تشكل ما قبل التاريخ أن مشكلة أصول اللغة مستعصية على الحل)) ، كتاب تاريخ علم اللغة لمؤلفه جورج مونين (ترجمة د . بدر الدين القاسم ص 16 – 17) . وذلك لأن اللغات واللهجات التي تناولوها في بحوثهم كانت إمّا بدائية غير نضيجة بلا أصول ، وإمّا حية متطورة قد انتقلت مراراً من شعب إلى شعب ومن بيئة إلى بيئة ، فضاعت أصولها منذ آلاف الأعوام . وهكذا خلص علماء اللغة الغربيون إلى رمزية الكلمة ، فقال (سوسير) ، أحد كبار مؤسسي علوم الألسنية الحديثة : ((أن الرموز الصوتية للكلمة لا معنى لها في حد ذاتها ، أي اعتباطية . والعلاقة بين الرموز والمعاني ، على الرغم من عشوائيتها هي اصطلاحية اتفاقية ، ثابتة بالنسبة للغة الواحدة والمجتمع الواحد)) . (المجلد / 19 / ج الأول لعام 1988 ص 33) من مجلة اللسان العربي .

ولقد اتبعت هذين النهجين معاً بمعرض البرهان على فطرية اللغة العربية في دراستي عن (الحرف العربي والشخصية العربية) ، فكانت نتائجهما الايجابية متكاملة ومتطابقة . وذلك لأن اللغة العربية ظلت أداة التواصل مع ذات الشعب الذي أبدعها ، في ذات البيئة التي نشأت في ربوعها ، تتفاعل معهما مرحلة حياة بعد مرحلة ، وألف عام بعد ألف إلى أن استوفت شروط نضجها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، فحفظا لها أصولها من الضياع . وهكذا بقيت لنا هذه الأصول عالقة باللغة العربية ، لا بل بالحرف العربي بالذات حتى يومنا هذا .

ولكن ، لما كان الهبوط مما قبل التاريخ إلى الحروف العربية الراهنة يتطلب سرد المزيد من الأدلة

التاريخية والأثرية والنفسية والاجتماعية والمهنية والفنية وما إليها ، مما يبعدنا كثيراً عن موضوعنا اللغوي هذا ، فقد اخترت النهج الثاني .

فالصعود بالحروف العربية على مدارج من خصائصها الايمائية والتمثيلية والايحائية على واقع معانيها المعجمية إلى ما قبل التاريخ ، من شأنه أن يوصلنا إلى أصول نشأتها الأولى ، في المراجل الغابية والزراعية والرعوية .

وعلى الرغم من أن صحة نتائج الأدلة اللغوية تنسحب بالضرورة على كل ما عداها! من الأدلة ، إلا أنه من المفيد أن نسرد ما تحصل لنا من نتائج الأدلة الأخرى عند الاقتضاء ، كيما يكون القارىء أقدر على تمثل خصائص الحروف العربية واستيعاب معانيها .

فالرجوع إلى المرحلة التي أبدع فيها الانسان العربي كل حرف من حروفه ، من شأنه أن يساعدنا على استشفاف خصائصه البكر ، وبالتالي معناه الأصل الذي أبدع خصيصاً للتعبير عنه .

ولما كان معنى الكلمة العربية في ظل مقولة (فطرية اللغة العربية) هو بالضرورة محصلة معاني حروفها ، فإن العودة إلى أصول معاني الحروف العربية يمنحنا المزيد من المكاسب اللغوية والقومية والاجتماعية والانسانية ... منها :

1 – إلقاء أضواء جديدة على معاني الكلمة العربية ومشتقاتها ، فنميز بين معانيها الحقيقية والمجازية ، مما يساعدنا على سلامة استعمالها لمعان معاصرة لم ترد في تراثنا ، لا سيما العلمي منها .

2 – تحرير معاني الكلمة العربية من الشوائب المعجمية والتراثية التي قد تكون لحقت بها في الشروح والتفاسير .

3 – تصحيح حركة (عين) الفعل الثلاثي بما ينسجم مع معانيه كما أسلفنا في الحلقة السابقة .

4 – اكتشاف الأخطاء التي طرأت على بنية بعض الكلمات العربية بعد التدوين وقبل التنقيط بإسناد حرف معين لكلمة لا تتوافق خصائصه مع معانيها ، بدلا من الحرف الأصل الذي تتوافق خصائصه مع معانيها ، مما يشبهه قبل التنقيط . كما في حروف : (ج. ح. خ. د. ذ. ر. ز. س. ش ...).

5 – تحديد المخرج الصوتي لكل حرف عربي على المدرج الصوتي ، بأن يلفظ صوته بطريقة معينة من الشدة أو الرخاوة أو الفخامة أو الخنخنة وما إليها ، بما يكفل التوافق بين موحياته وبين معاني المصادر الذي يشارك في تراكيبها . وبذلك نستطيع اليوم أن نفصل في الخلاف بين العلماء حول مخارج العديد من أصوات الحروف كما في (ع. ج. ض. خ. ق. ك ...) فنلفظ أصوات حروفنا قريباً جداً مما كانت عليه في الجاهلية ، ونحفظ للسان العربي بذلك اصالة النطق به من الضياع في تيارات لاحصر لها من اللهجات الاقليمية والعامية جيلاً بعد جيل .

6 – تهديم جدران الرمزية والاصطلاحية الغربية التي حاصرت علوم اللغة العربية وكثيراً من دكاترتها .

7 – دعوة للألسنية الحديثة للافادة من هذه الظاهرة الأصيلة في اللغة العربية ، في انعطاف تصحيحي جديد لها .

وثمة مكاسب غيرها لا متسع لسردها ، كان من أهمها الكشف عن النزعة الفنية الأخلاقية في مقومات الشخصية العربية . نهج في دنيا الثقافة مستمد من نهجه في دنيا المجتمع .

**ثانياً : حول مراحل إبداع الحروف العربية :**

لقد تحدثنا في الحلقة السابقة عن إيمائية الحروف الغابية (الألف والواو والياء والهمزة المزمارية) ، وعن دلالاتها الحركية بما يكفل إقناع القارىء بصحة انتمائها إلى المرحلة الغابية . ولكن القارىء قد يتساءل : لماذا قسمنا الحروف الايمائية إلى غابية وزراعية ، فلا تكون غابية كلها أو زراعية كلها ، مادام الانسان العربي قد اعتمد طريقة التلفظ بأصواتها إيماء وتمثيلاً للتعبير بها عن حاجاته ؟. فأجيب :

إن الطابع الغالب على أصوات الحروف الغابية كما أسلفنا في الحلقة السابقة ، هو الهيجاني مصحوبة بحركات الرأس العفوية إلى (فوق – أمام – تحت) ، مما لا يتطلب اصدارها أي براعة أو ذكاء . أما أصول الحروف الزراعية فهي إيمائية تمثيلية إرادية يحتاج إصدارها إلى مزيد من البراعة والذكاء ، وذلك للتعبير بها عن حاجات حضارية منوعة تتجاوز متطلبات المرحلة الغابية المشردة والمستوى الفكري للانسان الغابي . فحرف (الفاء) مثلاً ، يحصل صوته بضرب الأسنان العليا على الشفة السفلى حبساً للنفس ، وبانفراجهما عن بعضهما عند خروجه . هذه الحركات تمثل إراديا حادثة الحفر بعظم أبيض على أرض طرية ، كما كانت المرأة العربية تفعل ذلك في بواكير المرحلة الزراعية .

وهكذا كانت البراعة والمستوى الفكري والحاجة هي الحدود الفاصلة بين الغابي والزراعي في الحروف العربية ، كما في أي ظاهرة حضارية أخرى . وقد يتساءل أيضاً :

بفرض أسبقية المرحلة الزراعية على المرحلة الرعوية ، خلافاً لما أجمع عليه معظم علماء التاريخ والآثار والاجتماع ، فكانت المرحلة الرعوية اللاحقة بذلك هي الأرقى حكماً .

لماذا لا نسند إبداع الحروف الزراعية أيضاً إلى المرحلة الرعوية المتطورة التي امتدت منذ الألف (9) ق .م حتى العصر الجاهلي ؟. فأجيب :

إن المرحلة الرعوية المشردة هي من نتاج المرحلة الزراعية المستقرة . فالمؤرخ الكبير (أرنولد توينبي) يؤكد في الجزء الأول من كتابه مختصر دراسة التاريخ مراراً : إن فن استئناس الحيوان هو أرقى من فن استئناس النبات ، وأنه من المحال على الانسان أن ينتقل مباشرة من المرحلة الغابية المشردة إلى المرحلة الرعوية المشردة ، قبل أن يمر بمرحلة زراعية مستقرة يستأنس فيها الحيوان والنبات .

ولقد مر الانسان العربي فعلاً بهذه المرحلة في الجزيرة العربية مع بوادر جفاف مابعد العصر الجليدي الأخير ، حوالي الألف (12) ق . م . فكان لزاماً على المرأة الأم زعيمة المرحلة الزراعية وربة الزراعة ، أن تضيف إلى الحروف الغابية حروفاً أخرى للتعبير بها إيماء وتمثيلاً عن حاجاتها ومعانيها الجديدة ، إرثاً في طريقة التواصل الايمائي عن المرحلة الغابية . وسنتحدث في الحلقة القادمة عن العلاقات الخفية بين المرأة العربية وهذه الحروف الايمائية التمثيلية .

ولكن عندما أخذت بوادر الجفاف تستحكم في ربوع الجزيرة العربية حوالي الألف (9) قبل الميلاد ، فقد اضطر الانسان العربي إلى ممارسة مهنة الرعي المشردة على يد الرجل القوي سعياً وراء الماء والكلأ . فكان من طبيعة الأمور أن يغتصب الرجل المحارب مالك القطيع من المرأة مختلف الزعامات الأسروية والاجتماعية والاقتصادية والدينية واللغوية فيلحقها وأولادها به ، على نقيض ما كانت حاله معها في المرحلة الزراعية .

وبتطور حياة الانسان العربي من الزراعي إلى الرعوي ، كان لابد أن تتطور معها أيضاً وسائل التواصل بينه وبين أبناء جنسه .

فالحركات الايمائية والتمثيلية الموروثة عن عهدي الغاب والزراعة لم تعد تجدي الرجل نفعاً في تواصله مع أبناء جنسه عبر المسافات البعيدة نهاراً ، ولاعبر الظلام في سهراته الليلية وهو يحرس القطيع من اللصوص والوحوش المتربصة . تقليد رعوي في السهر وحكاياته ورواياته ظل سائدا في المنطقة العربية حتى القرن العشرين ب . م . فكان ذلك عاملاً هاماً من عوامل ترسيخ القيم الجمالية والأخلاقية في التراث العربي .

وهكذا كان لابد للانسان العربي أن يهذب من الأصوات الموروثة ، وأن يبدع أصوات جديدة توحي بمعانيها في سمعه دونما حاجة إلى حركات جسمية مرئية ترافقها ، فتطورت عبر الزمن إلى أصوات حروف .

فكان لنا من المرحلة الرعوية طريقة راقية في التعبير عن معان مستجدة تعتمد صدى الأصوات في النفس ، تقتضي مزيداً من البراعة ورهافة الأحاسيس والمشاعر الانسانية . كما كان لنا منها أيضاً أصوات حروف تتجاوز وظائفها ومعانيها حاجات الانسان العربي ، ومستوياته الفكرية والنفسية والاجتماعية والمهنية مما كان عليه في المرحلتين الغابية والزراعية .

وهكذا بعد أن اهتدى الانسان العربي إلى هذه الطريقة الراقية في التعبير إيحاء بأصوات حروفه ، فلقد كان من المحال أن يعود القهقري ، فيلجأ إلى إبداع حروف تعتمد طريقة النطق بها إيماء وتمثيلا للتعبير عن معانيه .

وإذن باستحالة إبداع الحروف الايمائية التمثيلية في المرحلة الغابية لشدة تخلفها ، أو في المرحلة الرعوية لشدة تطورها ، فإن هذه الفئة من الحروف لابد أن تنتمي إلى مرحلة زراعية وسيط بين المرحلتين .

وهذا دليل لغوي قوي على توزع الحروف العربية إلى غابي وزراعي ورعوي يحتم مرور الانسان العربي بهذه المراحل الثلاث تباعاً .